رواية للناشئة

ديوان العرب تقدم لكم:

البوســـــــــــطة

بقلم: د. طارق البكري

1 - بيتي الجميل

الأشجار عالية مورقة الأغصان، تمتد فروعها لتعانق بعضها بعضاً..
تنتشر بانتظام، كسلسلة العقد في أنحاء حديقة بيتنا الريفي ذي السقف القرميدي الأحمر.
الجدران صخرية مدببة كأنها منقوشة بحبات أرز أبيض، وموشحة بخيوط وردية منسوجة باحتراف.
وهناك أيضاً شجيرات صغيرات، يتفيأ ظلالها مربع أخضر مخصص لأنواع من النباتات

الورقية؛ مثل النعناع والبقدونس والخس والملوخية.. التي تحب أمي أن نأكلها طازجة، من الأرض إلى المائدة.

وفي محاذاة السور الحجري أعناق عملاقة لنبتة دوار الشمس بوجهها المستدير الباسم.. تتخفى خلف مجموعة من أشجار الليمون.

وحول جذوع الأشجار في أقصى الحديقة أشكال وألوان من الورد الأصفر والأحمر والأبيض والأرجواني..

يمتد الورد في جوار شريط عشبي أخضر، يكسو السور بعباءة بهية وقورة.. ويتمادى في امتداده حتى يغطي جانباً من البوابة الرئيسية..

البيت مبني بشكل شبه مستدير، وحوله مساحات عشبية ندية، مثل سوار في معصم، تنتشر حول البيت وتتداخل مع شرفات تزدان بأشكال نباتية تتماهى مع المكان ورحابته..

فأكاد أشعر أني أحيا في خيال..

وأنَّ بيتي هو جنتي على الأرض.

كنتُ أقطع المسافة الممتدة من باب بيتنا الخشبي - المُحلَّى بألوان تمتزج مع هذا الطيف الطبيعي الخلاب - حتى البوابة الحديدية الرئيسية حيث مدخل الحديقة؛ عدواً وقفزاً أسابق كلب الحراسة (ذي الفك المفترس)..

المسافة كانت مغطاة بنوع من البلاط الصخري الخشن، المتوائم والمتجانس مع هذه الأنغام الطبيعية.. فيبدو كأنَّه جزء منها..

تشكِّل لي هذه اليومية عزفاً هادئاً يملأ نفسي طمأنينة وأماناً..

فجمال الطبيعة سر من أسرار الوجود، يجري مع النفس كما تجري الدماء في العروق..

في قسمات الطبيعة سحر سرمدي أخاذ.. ينشر في الحنايا دفء الحياة وصفاءها مثل النسيم الوردي..

الطبيعة جزء من نفسي، وهي في بلدتنا مكحلةٌ ومزينةٌ.. ولا تحتاج إلى معطرات أو مرطبات..

الطبيعة تُوَلِّد فيَّ تطلعاً نحو الفرح والأمل، فلا مكان للحزن والكآبة في هذه اللوحة الباسمة.. ولا مكان للملل..

هي مساحة تملأ النفس بإشعاعات الحياة..

تسكب الفرح في كؤوس من جمال ودلال.

وفي جانب من حديقة بيتنا الواسعة شجرة تفاح عتيقة، شاخت مع السنين .. أحببتها منذ الصغر، ولي معها قصص وحكايات على مدى الفصول ومراحل الطفولة..

أبي يقول إنّ أمّه - رحمها الله - غرستها شجيرة صغيرة منذ زمن بعيد، وقبل أن يبني أبي هذا البيت، وهو لا يدري متى بالتحديد، فقد زرعتها يوم كان طفلاً، وهي تحمل في قلبه ذكريات غالية عزيزة.

لذا ظلّ يرعاها بنفسه، يهتم بها كأنّها فرد من أسرتنا.

وكان يهتم حتى بجمع الأوراق التي تقع منها، بالرغم من أن ذلك جزء من وظيفة العم جميل البستاني، الذي كانت مهامه تتخطى أحياناً رعاية الحديقة وأزهارها وأشجارها ونباتاتها.. إلى رعاية أهل البيت نفسه.. فهو بعد عمر طويل من العمل؛ أضحى ركناً أساسياً من هذا البيت.. وأهله.

وأبي يعتبر أوراق (شجرة جدتي) شيئاً غالياً على قلبه.

يجمع أوراقها المتساقطة في مواسم الخريف ورقة ورقة.. ثم ينقلها في عربة صغيرة لها دولاب واحد ليدفنها في حفرة يحفرها بنفسه كل عام في أمكنة متفرقة من الحديقة..

يقول أبي إن هذه الأوراق غالية على نفسه ولن يرميها في النفايات..

فهي "ستعود لتحيا" بعد أن تتفتت وتختلط بالتربة.. ثم تولد من جديد أوراقاً وأعشاباً تذكره

بجدتي..
وفي موسم التفاح؛ كنا أنا وأمي وأخي بشير نبتهج كثيراً عندما يقوم أبي بنفسه بقطف ثمار الشجرة ويقدّم أطيب حباتها لنا، باعتبارها أحلى وأغلى هديّة سنويّة مستمرّة من أمّه، رحمها الله.
كان أبي يريد أن يشعرنا بأن هناك عيداً سنوياً اسمه: (عيد التفاح)..
وكنا نترقب هذا الموسم من عام إلى عام لنرى تلك الفرحة الغامرة التي يعيشها أبي وهو يراقب الشجرة تزهر وتثمر .. وتخرج خيراتها (هدية الأم)، جدتنا الغالية..
أما نحن فكان أبي يمنعنا من الاقتراب منها، حتى بعد أن ينتهي الموسم، ولم يكن يسمح لنا باللعب في ظل الشجرة كيلا نتسلقها ونكسر أغصانها..
فهو يحمل في قلبه حباً لها ووفاء، مثل روايات البِرِّ التي نسمع عنها الكثير الكثير..
ومع الأيام شاخت الشجرة..
لم تعد تنتج تفاحاً كالسابق.
منظرها أصبح لا يتوافق مع مشهد حديقتنا الخضراء على الدوام..
وصار موقعها يتنافر مع موقع الأشجار الأخرى التي تحيط بالبيت.
لكن إعدام الشجرة كان مستحيلاً..
اقترح أخي بشير على أبي أن ينقل الشجرة إلى مكان آخر في الحديقة الخلفية للبيت، وبذلك تبقى في الحديقة، دون أن تؤذي باقي الأشجار ومنظر الحديقة العام..
ظهرت على أبي علامات الغضب، احمر وجه من الغيظ.. فقام من مجلسه.. وقال كلمة الفصل: "لن تنتقل هذه الشجرة من مكانها ما دمت حياً".
احترمنا إرادة أبي..
ولم يجرؤ أحد على اجتثاثها رغم تسببه من "إزعاج".
وبقيت الشجرة في مكانها، بعد أن يبس بعض عروقها وأغصانها.. وباتت لا تثمر.. ولم تعد تورق إلا ما ندر..
ولولا اخضرار بسيط فيها لأعلنّا موتها منذ زمن بعيد..
وفي يوم، اجتمعنا أنا وأمي وأخي بشير ومعنا العم جميل البستاني وقلنا لأبي إننا اتخذنا قراراً بالإجماع: "لا للشجرة لا نريدها لقد أصبح شكلها مخيفاً ومزعجاً".
وقلنا له: "لا فائدة منها".
لم يغضب أبي هذه المرة..
لم يرفع صوته ولم يحتد..
تمتم بهدوء: "لن تنزع هذه الشجرة من مكانها ما دمت حياً".
وبقيت الشجرة في مكانها.. حتى جاءت عاصفة خفيفة وقلعتها من جذروها الميتة.

2 - فراشات الحديقة

أجمل ما كان يفرحني عندما يأتي فصل الربيع الفراشات الكثيرة ومن كل الألوان، التي تنتشر في أنحاء حديقة بيتنا وفي كل بساتين بلدتنا..
وفي كل يوم من أيام الربيع أخرج إلى الحديقة حيث أمضي وقتاً طويلاً أراقب الفراشات وأفرح بالنظر إليها.. قبل أن أعود الى غرفتي.
وفي يوم..
قررت أنْ أزرعَ في شرفة غرفتي وروداً جميلة.. أعتني بها وأرعاها بنفسي..
وتمنيت أن تزورني الفراشات كما تزور حديقة بيتنا والبساتين المجاورة..

كنت أخرج إلى الحديقة كل يوم وأكلّم الفراشات وأدعوها لزيارة شرفتي..
ثم أضحك على نفسي.. وهل تفهمني الفراشات؟
وفي صباح جميل.. وقبيل ذهابي إلى المدرسة.. نظرت إلى الشرفة كعادتي على أمل..
غمرتني سعادة كبيرة وأنا أرى فراشة ملوّنة جميلة.. تطير حول ورودي.. وتلتهم رحيقها.. تبدو ضاحكة سعيدة.. وكأني سمعت رنّة ضحكاتها..
ثم رأيت الفراشة تطير بفرح..
تحرّك جناحيها بلطف وأناة..
ترقص دون توقف..
تلثم وردة حمراء..
ثم وردة بيضاء.. ثم صفراء..
ثم تعيد الكرّة كأنّها تريد أن "توشوش" كل ورود شرفتي..
خرجتُ إلى الشرفة.. وهي شرفة صغيرة.. صنع لها أبي نوافذ زجاجية.. وبسرعة خاطفة.. أغلقت النوافذ لتبقى الفراشة الراقصة داخل شرفتي إلى حين عودتي من المدرسة..
وطوال اليوم كنت أفكر بالفراشة..
لقد أصبح عندي بستان ورود وفيه فراشة ملوّنة..
وأخبرت كل أصدقائي بذلك..
وفي طريق عودتي من المدرسة لم أتوقف في حديقة بيتنا كعادتي..
توجهت إلى البيت مباشرة، فقد كنت مكتفياً بفراشتي التي تنتظرني في الشرفة..
وعندما دخلت البيت صعدت إلى شرفة غرفتي.. وكنت أتوقع رؤية الفراشة تطير وترقص كما تركتها.. في الصباح..
لكني لم أجد الفراشة..
خفت أنّها ربّما تمكنت من الفرار...
لكن كيف وقد أغلقت عليها كل المنافذ.. وأوصيت أمي ألا تفتح باب الشرفة ونوافذها؟
بحثت عنها..
وبعد بحث طويل..
وجدت الفراشة تختبئ تحت وريقة من وريقات زهرة..
وجدتها حزينة..
ضعيفة هزيلة..
فأصابني العجب...
ما سرها؟؟
لماذا تغيرت؟؟
كل شيء موجود هنا.. ماء.. طعام.. الشرفة ملك لها وحدها؟؟
فتحت نافذة الشرفة..
دخل الهواء المنعش.. فاهتز جناحاها.. ثم رأيتها تتحرك ببطء كأنّ النافذة تمتصها..
وفي لحظات.. كانت الفراشة تطير خارج الشرفة.. ترقص وتضحك من جديد.. واتجهت نحو أزهار حديقة بيتنا.. نحو صديقاتها الفراشات.. لتتنعم بالحرية..
ومن يومها تعلمت أنّ للحرية معنى.. وصرت أحلم بالفراشات الطائرة ولا أفكر لحظة بأن أحجز حريتها، لأن الحرية تعني السعادة.

كانت السعادة وما تزال أجمل الأشياء التي تملأ بيتنا..
أذكر أنه في ربيع الفراشات نفسه؛ دخل أبي إلى البيت يحمل هدية كبيرة يزينها ورق ملون بديع، يلمع بقلوب حمراء وورود وأزهار..
أسرعت أنا وبشير نهتف بفرح رافعين أيدينا، يسبق أحدنا الآخر لكي يكون الفائز بالصندوق الكبير..
رفع أبي الهدية فوق رأسه وألصق جسده بالحائط.. خوفاً عليها منَّا..
أمي كانت في تجلس في غرفتها..
جاءت تركض بعدما سمعت صوت صياحنا وضحكنا..
انعطف وهزّ الهديّة التي في يده برفق شديد، مشيراً بها نحو أمي...
أصابتنا خيبة.. فالهدية لأمي.. ولا تخصّ أحداً منا لا أنا ولا أخي بشير..
فتحت أمي الهدية..
كان فيها قلب كبير من الحلوى بني عليه بيت بالفاكهة الممزوجة بالعسل..
كانت المناسبة سعيدة.. تخص أبي وأمي.. فقد مضى على زواجهما 15 سنة..
وضعت أمي قالب الحلوى اللذيذ على الطاولة الكبيرة.. أخرج أبي من جيب سترته شمعة بالرقم (15) أشعل الشمعة، أطفأ الأنوار.. وغنينا جميعاً.. أغاني الفرح..

4 - العم جميل

الإحاسيس الجميلة التي تنشر السعادة في بيتنا لم تكن هي أيضاً بمنأى عن مشاعر العم جميل.. البستاني المسؤول عن حديقة بيتنا ورعايتها وحراستها..
فقد كأن أبي يعامله كأخ له.. وكفرد من أفراد أسرتنا السعيدة..
وكان العم جميل يعيش طفولتنا بلحظاتها السعيدة والحزينة..
ويكاد العم جميل ينقلب على ظهره من الضحك كلما شاهد كلب الحراسة بعينيه الواسعتين وأذنيه العريضتين وشعره البني الناعم الطويل وأقدامه المكللة بالسواد حتى منتصف بطنه الأبيض، يلاحقني قفزاً وعدواً ودوراناً حول نفسه وحولي.
يهزُّ شعر ذيله الطويل المكتنز، ويعوي مودِّعاً حتى صعودي باص المدرسة..
والباص هذا هو الباص الوحيد الذي يمرُّ قرب بيتنا يومياً..
والعم جميل - صديقي الدائم - تفتحت عيناي على الدنيا وهو يعمل في حديقة بيتنا..
يحملني.. يلعب معي..
يعلمني كيف أزرع الورود والنباتات وكيف أرعى الأشجار وأسقيها..
وكانت علاقته بكلب الحراسة غريبة..
والكلب عندما يراه أمامه يكرر مشهداً مسرحياً جميلاً؛
يتوقف عن النباح قليلاً, ثم يجلس على الأرض رافعاً قائمتيه الأماميتين، مخرجاً لسانه ينتظر أن يمسح العم جميل رأسه ويربت على ظهره.. ثم ينطلق بعدها ليدور حوله في حركات بهلوانية جميلة.. مثلما يفعل من حركات طريفة عندما يصل الباص ليأخذني إلى المدرسة..
والحقيقة أن العم جميل كان مشجعي الأول عند دخولي الروضة..
وأذكر أنّه عندما دخلت الروضة لأول مرة.. وكان ذلك منذ سنوات.. كان الأمر بالنسبة لي يشبه الكارثة..
وعندما رآني العم جميل ارتدي ثياب الروضة.. صار يصفق لي ويغني.. وأعطاني كيساً مليئاً بالحلويات التي أحبها كثيراً..

وأذكر أنّ أبي وأمي أخذاني معاً الى الروضة..
وكنت أرتدي ثوباً أصفر، بأزرار زرقاء داكنة.. وياقة بزنار أبيض يحيط بأطرافها..
لا أنكر أني كنت سعيداً بثوب الجديد.. لكني ما أن وصلت إلى الروضة وكانت قرية من بيتنا.. وأدركت أني سأنفصل عن أسرتي حتى شرعت بالبكاء..
وبعد أن كنت متحمساً فقدت كل حماسي في اللحظة التي سلمتني أمي إلى المدرِّسة التي كانت طيبة القلب.. لكنها لم تستطع أن تمنع دموعي من الانهمار مثل المطر..
وفي اليوم التالي..
أعلنت وبكل صراحة أنني لا أحب الروضة.. لا أريدها..
وبدلت كل آرائي نحوها..
لكن كل اعتراضاتي تحطمت أمام إصرار أمي وأبي على ذهابي إلى الروضة..
أحسست أنني مظلوم.. كيف ترميني أمي هذه الرمية القاسية؟!
من قال لها إني أريد أن أتعلم؟
أنا أريد البقاء في البيت..
عندها بدأت ألاحظ أن مشاعري هذه يشترك معي فيها كل الأطفال في روضتي..
علمت أنني لست وحدي في إحساسي..
فبدأت أتعاطف مع غيري.. وبدأ غيري يتعاطف معي.. لأننا جميعاً نشعر بالمشاعر المؤلمة نفسها..
وكان هذا الإحساس الجماعي أول مرة أشعر به في حياتي..
كان شعوراً جميلاً..
صرت أنتظره في كل مناسبة..
وحتى عندما أذهب إلى السينما في المدينة القريبة من بلدتنا.. فأرى الجميع فرحين مثلي.. أو عندما يمر مشهد فيه رعب وخوف وترقب.. ودهشة.. أشعر بأن كل من حولي يشعر مثلي..
وصرت عندما أدخل مكاناً جديداً فيه ورود ورياحين وجمال..
أشعر بالهدوء والسكينة..
وأرى ذلك على وجوه كل من حولي..
هذه لحظات لا تنسى.. وخاصة عندما نراها تمر مع غيرنا...
وعندما أنهيت مرحلة الروضة استعداداً للانتقال في العام التالي إلى المرحلة الابتدائية.. فاجأتني المعلمة في آخر أيام المدرسة بهدية جميلة.. عبارة سيارة حمراء كبيرة.. لها أبواب أربعة، تفتح كأنها سيارة حقيقية.. كما أنّ الغطاء الأمامي والخلفي يفتحان هما أيضاً..
كنت سعيداً بها..
وانتظرت لحظة خروجي من الروضة لكي أقدمها لأمي وأبي وأخي بشير باعتبارها هدية شرفية أخذتها من معلمتي في الروضة..
ومرت ساعات كأنها سنين طويلة..
شعرت بملل عظيم.. أريد الخروج..
ورحت أتضرع إلى الله أن يمضي الوقت بسرعة، من شدة اهتمامي بأن تشاهد أسرتي هذه الهدية غير المألوفة بالنسبة لي..
ومضى الوقت ببطء شديد..
وانتهى اليوم الأخير من الروضة..
حملت لعبتي الجديدة أترقب وصول أسرتي، لأنّ أبي وأمي وعداني بأن يأتيا ليأخذاني من الروضة في اليوم الأخير...

وركضت نحو أمي وأبي - وكان معهما أخي بشير والعم جميل البستاني - ألوح بالسيارة الحمراء، وكأني فارس عاد منتصراً من حرب طاحنة.. ويرفع راية الانتصار..
وعندما وصلت إليهما واحتضنتني أمي..
قلت في عجل: "أمي أمي.. هدية معلمتي"..
كانت الابتسامة الواسعة تغمر ملامح أمي ذات الوجه الأبيض المائل إلى الحمرة..
وقبل أن تجيبني صاح أخي بشير: "نعرف هذا.. فنحن من أعطى السيارة للمدرسة"..
في هذه اللحظة.. كرهت السيارة.. لم أعد أريدها.. وددت أن أحطمها..
حاولت أمي أن تسكت أخي..
لكن الأمر كان قد انتهى والمعلومة وصلت.. ولم تنفع بعدها كل محاولات تطييب الخاطر..
وصرت أعامل السيارة كعدوة لي..
وعلى صغر حجمها.. رحت أركب فوقها.. وأرفع قدمي الصغيرتين.. وأتمسك بالجدران ثم أدفع نفسي بكل قوة، فتسير السيارة وأنا فوقها رغم أني بالنسبة لها حمولة فوق الزائدة.. فهي سيارة للعب لا للركوب..
وعندما تحطمت من "سوء" الاستعمال.. لم أكن حزيناً..
لأنني تمنيت لو أعطتني معلمتي سيارة ورقية، وحتى لو كانت من دون عجلات..
ولو فعلت ذلك لاحتفظت بها طوال حياتي..

5 - باص المدرسة

أعرف هذا الباص منذ طفولتي الأولى.. وحتى قبل دخولي المدرسة الابتدائية..
فقد كنت أستيقظ باكراً مع موعد ذهاب أخي بشير إلى المدرسة وأخرج مع أمي أترقب ظهور هذا الباص الجميل.
ورغم أنه باصٌ قديم، فإنَّ سائقه كان حريصاً على تزيينه وتزويده بكل الجماليات التي تجعله ألقاً على الدوام، وكان حريصاً أيضاً على تزيينه بكثير من الأشكال والإضافات وتلميعه من حين إلى آخر ليبدو بأبهى حلة....
كان الباص يتهادى في طريقه في الصباح الباكر كالزمرُّدة المتلألئة، ولا سيما في الصباحات الشتوية الباردة عندما تكون الشمس مختبئة خلف الغيوم الداكنة، فيظهر وكأنَّه عربة من ألعاب السيرك أو مركبة في مهرجان أو في مناسبة احتفالية.
يمضي في طريقة فتظنه ذاهباً إلى حفلة عرس.. أو كأنَّه العربة التي ستنقل العروس نفسها..
المدرسة لم تكن بعيدة كثيراً عن بيتنا، فهي تقع في الجهة الجنوبية من بلدتنا، وبيتنا يقع في وسط البلدة الجديدة تقريباً..
وكم كنتُ أتمنى لو كان بيتنا أبعد وكان الطريق أطول، وأن يكثر الزحام، لنتأخر عن طابور الصباح ونلهو في الباص أكثر بصحبة الرفاق ونستمع لحكايات كثيرة يرويها سائق الباص..
لكنْ هيهات ما بين الحلم والحقيقة..
فالطرقات في البلدات الريفية البعيدة عن المدن لا تكون عادة مزدحمة بالسيارات..
وكثير من الناس يمتطون الدواب أو يركبون العربات ذات العجلات الخشبية والتي تجرها الدواب.. وخاصة عند الذهاب إلى الحقول للزرع أو للحصاد.. أو يستخدمون أقدامهم للتنقل داخل البلدة وشوارعها الداخلية.. والمحظوظ بينهم من لديه دراجة هوائية..

كنا نراقب المارة ونتأمل الطرقات والناس.. ونضحك ونغني ونلعب ونحن في طريقنا إلى المدرسة على متن الباص..

والأمر الذي يزيد الأمر روعة أنَّ سائق الباص العم أبو زكي كان يضفي على الفترة التي نقضيها بالطريق متعة إضافية.

والناس في بلدتنا لا يعتبرونه مجرد سائق، فهو يهتم بنا ويعرفنا طفلاً طفلاً.. ويعرف أهل بلدتنا.. الكبير منهم والصغير.

العم أبو زكي يقود هذا الباص منذ أكثر من 30 عاماً، هو ليس كبيراً بالسن، فقد اشترى الباص وهو شاب يافع.. وحافظ عليه ليبدو جديداً على الدوام.

وكان يحكي لنا الكثير من الحكايات خلال رحلتنا اليومية من البيت إلى المدرسة، أو في طريق عودتنا من المدرسة إلى البيت..

فعندما ينتهي دوام المدرسة ظهراً ويحين موعد العودة إلى بيوتنا؛ فإنَّ متعة الصباح في ركوب الباص تتحول إلى ملل لشدة تعبنا وحدة الشمس أحياناً.. فنتضرع إلى الله أن يطوي المسافات ليصل كلٌّ واحد منا إلى بيته بأسرع وقت، بعد أن أنهكنا الدرس وأتعبتنا الدراسة طوال النهار..

ومما يجعل الأمر مريحاً أن العم أبو زكي يستقبلنا أمام باب الباص بابتسامته المعهودة، يتأكد من وجود جميع الطلاب الذين أحضرهم في الصباح، ثم ينطلق بنا ويقص علينا من جديد حكاياته التي لا تنتهي، فنتفاعل رغم التعب والإرهاق..

6 - رفاق المدرسة

في مدرستي الكثير الكثير من الطلاب..

فهي تضم المرحلتين الابتدائية والمتوسطة، وهي ضخمة جداً، وتضم معظم أبناء البلدة الذين هم في سن الدراسة تقريباً، باستثناء بعض أبناء الأغنياء الذين يرسلون أولادهم إمَّا إلى العاصمة ليدرسوا في مدارس داخلية أجنبية، أو يرسلونهم إلى مدن قريبة بسياراتهم الخاصة ليدرسوا أيضاً في مدارس أجنبية ثم يعودون في المساء إلى بيوتهم.. وكان هنالك مدرسة أخرى تقع في الطرف الثاني من بلدتنا، تضم جزءاً آخر من طلاب المرحلتين.

بالنسبة لي فقد كنتُ أفضِّل هذه المدرسة.. ففيهاا ألتقي بأقاربي وجيراني وكل رفاقي.

يجمعنا الكثير الكثير من الأشياء الجميلة التي تركت في نفسي ذكريات لا تمحى..

وكان معظم مدرسي المدرسة ومدرساتها من أبناء بلدتنا نفسها، وأحياناً يأتينا بعض المدرسين من خارجها، وكثير منهم يندمجون مع أهالي البلدة بسرعة كبيرة، وبعضهم يتزوج من بنات بلدتنا ويسكنون فيها بشكل دائم، ويصبحون من أهلها..

ففي قريتنا سحر وجمال يندر وجودهما في مكان آخر..

ومدرستي تشبه بيوت البلدة، لكنَّها أكبر حجماً ومساحة..

تستوعب الكثير من طلاب وطالبات المرحلة الابتدائية، وطلاب المرحلة المتوسطة.. أمّا طالبات المرحلة المتوسطة فيذهبن إلى مدرسة أخرى تضم المرحلتين المتوسطة والثانوية.. تقع على مقربة من منزلي.

جدِّي كان يقول إنَّ مبنى مدرستي كان قصراً أو معبداً أثرياً، لا يعرف مالكه الأصلي..

وكان كلام جدي يتطابق مع كلام العم أبو زكي في هذا الشأن..

هما يقولان إنَّ ملكية القصر التراثي تحولت مع مضي الأيام إلى بلدية البلدة، ولم يطالب به أحد، فالمدرسة أثريَّة ولا تعرف قصتها ولا يعرف صاحبها الحقيقي، هي مبنية من الصخر مثل معظم بيوت البلدة، ويكسو سقفها قرميد أحمر لامع.. غير أن لونه بهت كثيراً من أثر الزمن..

وكان سكان البلدة يهتمون بمبنى المدرسة، يعتبرونه جزءاً أساسياً من تراثهم، فهي أثر مهم يأتي أحياناً بعض الزوار من خارج البلدة ليروه ويستمتعوا بمنظره والتقاط الصور أمامه..

وقرب المدرسة مسجدان متلاصقان، واحد صغير قديم، من عمر مدرستنا تقريباً لكنَّه لم يعد مستخدماً..

والآخر حديث بني على نفقة مغتربي البلدة كما هو منقوش على لوحة رخامية عند باب المسجد يعود عمرها إلى ما قبل ولادتي بسنة أو سنتين..

فقد كانت أروقة المدرسة وفصولها وقاعاتها، وساحاتها، ومسجدها الملاصق.. مساحة متاحة لكل طلاب المدرسة..

وكنا نقضي في هذا المكان وقتاً طويلاً من يومنا، بالدرس واللعب والصلاة في المسجد والتمتع بالطبيعة الخلابة.

وكان طلاب المدرسة يحبون أكثر ما يحبون لعبة كرة القدم.

وكنا نلعب الكرة في ساحة رملية خارج المدرسة، ويشاركنا باللعب بعض المدرسين، وأحياناً نشكل فريقين؛ فريقاً من المدرسين وفريقاً من الطلاب، وتدور بيننا مواجهات قوية وحقيقية..

وفي بعض الأحيان كنا نفوز عليهم.. فيهددوننا - مازحين - بإنهم سوف يصعِّبون علينا الامتحانات.. فنضحك لضحكهم.. ونقضي معهم أجمل الأوقات..

وكان هناك طالب اسمه يوسف، في المرحلة المتوسطة، يهوى كثيراً لعبة كرة القدم، وكان الفريق الذي يلعب معه غالباً ما يفوز باللعب، ولذلك فإنَّ الجميع كانوا يتمنون أن يكونوا في الفريق نفسه الذي يكون فيه يوسف.. وخاصة عندما تكون المواجهة مع فريق المدرسين.

أما صديقي وليد فلم يكن يحب كثيراً لعبة كرة القدم.. ويفضل الجلوس بين صفوف المشاهدين.. وكنت أنا ألعب في الاحتياط غالباً، لأني لست ماهراً بهذه اللعبة، فعندما يغيب لاعب أساسي ويحتاج الفريق إلى لاعب آخر يطلبون مني اللعب..

أمَّا عندما يكون الفريق كاملاً أجلس واستمتع بالمشاهدة..

وبذلك كنا نقضي أجمل الأوقات..

وأذكر أنَّ يوسف، وفي إحدى المباريات مع فريق المدرسين، قفز قفزة عالية ليضرب الكرة بقدمه، لكنه تعثر وسقط على الأرض بقوة فكسرت قدمه اليمنى، وظل فترة طويلة وقدمة في (الجبيرة).

وقضينا طوال تلك الفترة نضحك على تلك الحادثة، حيث كان يوسف لا يستطيع المشي دون عكاز.. وظننا أنه لن يجرؤ بعد ذلك على اللعب بكرة القدم.. لكنه بعد أن تحرر من جبيرته عاد يلعب بالكرة وكأنَّ شيئاً لم يكن..

7 - فريق الكشافة

وكنتُ أرى الكشافة في مدرستي يرفعون علم بلادي، وهم يعزفون على آلات موسيقية وينشدون النشيد الوطني، ويلقون التحية على العلم.. صباح كل يوم.

وكان هذا المشهد يعجبني كثيراً..

قلت لأبي إنّي أريد دخول الكشافة..

كنتُ صغيراً في الصف الأول الابتدائي..

رحّب أبي كثيراً برغبتي هذه.. وشجعني..

سألت أصدقائي الذين يرفعون العلم كل يوم عن طريقة اشتراكي في فرقة الكشافة.. فشجعوني هم أيضاً.. وطلبوا مني أن أحضر يوم العطلة الأسبوعية وهو يوم النشاط الرسمي للكشافة..

ومنذ ذلك اليوم بدأت أهتم كثيراً بهذا النشاط، وكنت أريد المشاركة في رفع العلم... لكن قائد الفرقة طلب مني التمهل بعض الوقت.. لأنَّ من يرفع العلم عليه أن يمضي وقتاً في التدرب.. والأفضلية للأكبر سناً والأقدم في الكشافة..

كنتُ حريصاً على أن أراقبهم ماذا يفعلون بدقة.. وخاصة عند رفع العلم وأداء التحية.. وكان ذلك استعراضاً متكاملاً يشبه طريقة الجنود في رفع العلم..

وحريصت على ارتداء الزي الكشفي بشكل شبه يومي، دون أن يطلب مني ذلك.. لأنّ الذين يرتدون هذا الزيَّ يومياً هم من يطلب منهم رفع العلم فقط...

وفي أحد الأيام.. كنت مرتدياً الزي الكشفي، وعندما حان وقت رفع العلم؛ اكشف قائد الفرقة غياب أحد الطلاب، وكان مقرراً له أن يرفع العلم في ذلك اليوم..

فشاهدني قائد الفرقة مرتدياً زيّ الكشافة.. سألني إن كنتُ واثقاً من معرفتي التامة لكيفية رفع العلم؟؟

وفي هذه اللحظة شعرت أنَّ الدنيا لا تسعني..

كان يريد من خلال هذا السؤال أنَّ أقوم بذلك لسبب طارئ.. فأكدت له أني اتقن هذا الأمر تماماً..

فقال: "سنجربك اليوم.. هذه هي فرصتك قد حانت.. لو نجحت ستشارك الفرقة برفع العلم من حين إلى آخر"..

ثم حذرني من الخطأ.. "فناظر المدرسة لا يحب الخطأ في رفع العلم.. ولو علم قائد الكشافة سيمنعك من رفع العلم مرة ثانية".

قلت له: "لا تقلق.. وسوف ترى ماذا سأفعل".

وكنتُ قد حفظت تماماً كامل الخطوات التي يؤديها الكشافة وهم يسيرون جنباً إلى جنب وفي خطوات ثابتة موحدة.. وكنت متأكداً من أنني من المستحيل أن أخطأ لأني تدربت على ذلك مراراً وتكراراً..

وكانت تجربة رائعة لا يمكن أن أنساها..

وقد هنأني قائد الفرقة على خطواتي الواثقة الصحيحة..

ومنذ ذلك اليوم رفعت العلم عشرات المرات أمام الناظر والمدرسين والطلاب.. وفي احتفالات عدة داخل المدرسة.. لكني لم أكن أريد أن أحظى لوحدي فقط بهذا الشرف.. بل كنتُ أتيح الفرصة لكلِّ من يحب أن يرفع العلم، وأساعده وأدربه ليقوم بذلك.. لأحقق حلمه برفع العلم، كما تحقق حلمي في أحد الأيام...

8 – وليد وسلمى

صديقي وليد كان الأقرب إلى نفسي من بين جميع أصدقائي في بلدتنا البعيدة.

لم يكن وليد يشغل نفسه بالدراسة كثيراً، فقد كانت فكرة السفر تشغل تفكيره دائماً..

وكان وليد ماهراً بأشياء عديدة، وخصوصاً بما يتعلق بالأرض والزراعة، فقد كان أبوه مزارعاً يملك عدة حقول مليئة بالجوز والتين والتفاح والعنب..

لكن أحلام وليد لم تكن تتطابق مع أحلام والده الذي يريده أن يكون مزارعاً مثله.. بينما وليد يريد السفر إلى كندا ليلحق بإخوته وأبناء عمومته، للعمل هناك مثلهم في التجارة..

وقد حاول أكثر من مرة أنْ يقنعني بفكرة السفر معاً..

لكنَّ فكرة السفر والاستقرار في دولة أجنبية لم تكن مستساغة عندي.. فأنا لا أتخيل نفسي على الأطلاق أعيش في بيئة غربية ومجتمع غربي.. فشدة تمسكي ببلدتي وأرضي أشياء تكبح عندي

جماح التفكير بالهجرة كما يفعل كثير من شباب بلدتنا..
لكن ذلك لا يعني أنهم لم يكونوا يحبون أرضهم وبلدتهم مثلي.. غير أن السفر كان عادة ورغبة في بلدتنا بحثاً عن الأفضل..
وهم يعودون غالباً إلى بلدتنا ويتزوجون منها، مهما طال السفر، ونادراً ما تزوج واحد من أبناء بلدتنا من امرأة أجنبية..
كانوا يعتبرون أنَّ ذلك أمر لا يتفق بتاتاً مع عاداتنا وتقاليدنا..
وكان من بين هؤلاء الذين يفكرون بالسفر والهجرة والعيش في بلاد المهجر ولا سيما كندا أصدقاء لي كثر.. ومعظمهم لديهم أقارب مهاجرون. أمَّا أنا فلم يكن لدي أقارب مهاجرون..
فأبي لديه شقيقة واحدة توفيت صغيرة قبل أن تتزوج.. وله ابن عم واحد يعمل طبيباً بيطرياً ولم يتزوج بعد.. وأنا عندي أخ وحيد أكبر مني ولا يفكر هو أيضاً بالسفر..
وأخي بشير لديه حلم قديم.. فهو يريد أن ينهي الثانوية وينتقل إلى العاصمة ليدرس الحقوق في الجامعة ثم يدخل معهد القضاء.. ليصبح قاضياً.. مع أن أبي يلحُّ عليه أن يكون محامياً مثله.. لأنَّ المحاماة برأي أبي تجعله متحرراً أكثر من قيود القضاء..
وأبي يحثه ويحثني أنا أيضاً على التفكير بدخول كلية الحقوق، لكني لم أفكر بالمحاماة ولا بغير المحاماة، فقد كان همي الأكبر اللعب مع الأصدقاء.. وكانت أكبر وأعظم أمنية عندي أن أركب (العجلة الدوارة) بمفردي دون أن يكون معي أحد..
وأنّ أصعد إلى قمتها لأتأمل المشهد (البانورامي) البديع الذي لا يتاح لي إلا في فترات متباعدة، وبرفقة أمي تحديداً التي ترفض أن أركب العجلة لوحدي أو مع أحد أحد غيرها..
فأمي تخاف علي كثيراً.. وترافقني معظم الوقت بعد عودتي من المدرسة حتى موعد نومي.. غير أنَّها كانت تسمح لي أحياناً بالذهاب للتنزه مع صديقي وليد..
كان وليد فتى وديعاً مميزاً حقاً.. لكنَّه لم يكن مهتماً بالدراسة..
تطلعه دائم للسفر إلى كندا، وفي معظم الوقت كان يحدثني عن أحلامه هناك، وأنه سوف يسافر عندما تسنح له الظروف، ثم يعمل مع أخوته في التجارة، ويجمع الكثير الكثير من المال ليعود ويبني له قصراً، ويتزوج أجمل بنات البلدة..
وفي الحقيقة لولا وليد ورفقته فإنَّ طفولتي في بلدتنا - ربما - كانت مملة.. فهو صديقي المقرَّب.. وأكثر من يفهمني وأفهمه بين أطفال البلدة..
كنا نحب معاً.. ونكره معاً.. ونلهو معاً.. ونبكي معاً.. وكانت والدتي تحبه وتثق بأنه ولد ذكي عاقل غير متهور.
ولطالما ذهبنا معاً - في الأوقات النادرة التي تسمح لي فيها والدتي بذلك - إلى الحقول والبساتين البعيدة..
ومرَّة صعدنا قمة الجبل الذي يشرف على بلدتنا من الناحية الشرقية.
وأجمل شيء عندي عندما كنا نذهب إلى مزرعة صغيرة لأبيه فيها مجموعة من الحمير والبقر والدجاج والبط..
وكان أكثر ما يفرحني ركوب الحمار الرمادي..
وهو في الحقيقة لم يكن حماراً، بل (بغلاً)، والبغل كما أخبرني وليد حيوان هجين ينتجه تزاوج فرس وحمار، يكتسب العديد من صفاتهما المميزة؛ فللبغل صبر الحمار وقوة الفرس.
والبغال حيوانات قوية العضلات صغيرة الجسم سريعة الحركة، تستعمل في الركوب والجر..
والبغال بإمكانها نقل الأحمال الثقيلة في المناطق الجبلية ذات الطرق غير السالكة والتي يصعب حتى على أحدث وسائل النقل الحديثة سلوكها.
والبغل يتصف بالعناد فيقال "عنيد كالبغل".

ويقال أيضاَ إنّه إذا قسا عليه سائسه وهو سائر في أعالي الجبال يرمي بحمله وينتحر برمي نفسه من أعلى الجبل.

والبغال كما لاحظت بنفسي أقوى كثيراً من الحمير، ولها قدرة كبيرة على صعود الجبال ونزول المنحدرات بقوة ومهارة وثبات وهي تحمل حملاً ثقيلاً..

وفي يوم، من أيام الصيف، وكانت المدرسة مقفلة في العطلة الصيفية، جلست أنا ووليد - كعادتنا - في أجمل مكان في بلدتنا عند (عين الماء)..

ففي هذا المكان يكون الجو منعشاً والهواء لطيفاً..

والماء المتدفق من العين يزيد المكان جمالاً وروعة، مع صوت انسياب الماء برفق حتى يملأ الحوض الخارجي الكبير، حيث تأتي الدواب لتشرب الماء لوحدها ثم تعود على زرائبها بهدوء وأمان..

ولم تكن في بلدتنا مياه تصل إلى كثير من البيوت، وخاصة بيوت البلدة القديمة..

والنساء يذهبن إلى العين حيث يملأن الجرار ويحملنها على رؤسهن.. وينقلنها إلى خزانات في البيوت.. وكنت أعجب من طريقة حمل النساء للجرار.. فهن يضعن قطعة من القماش المرصوص بشكل دائري، ثم يضعن الجرار فوق قطعة القماش.. وتسير النساء برشاقة مدهشة وهن يحملن الجرار المملوءة بالماء على رؤوسهن.. دون أن تقع منها نقطة ماء.

في ذلك اليوم أخبرت وليداً عن سرٍّ في صدري..

كان ذلك السر هو أكبر الأسرار التي يمكن أن نفكر بها في طفولتنا..

قلت له: "إنني أحب سلمى"..

فصاح باستغرب ودهشة: سلمى.. سلمى؟!

وهو يقصد سلمى التي نعرفها.. ذات البشرة السمراء الممتزجة بلون الشمس.. التي جاءت هي وأسرتها من إحدى القرى القريبة لقضاء عطلة الصيف من بلدتنا.. عند قريب لهم اسمه العم نعيم.

قلت: "اخفض صوتك يا غبي.. سيسمعنا الجميع".

"هل تقصد سلمى التي تسكن فوق دكان العم نعيم في المسكن الذي يملكه؟ يا لك من مخادع خطير.. وأنا كنتُ أتساءل بيني وبين نفسي لماذا كنتَ تأخذني إلى دكان العم نعيم البعيد لنشتري الحلويات مع أن قرب بيتنا دكاناً مماثلاً.. وكنت تقول لي إنك تريد أن تتمشى.. بينما أنت كنت تطمع بأنْ ترى سلمى. يا لي من غبي.. لا شكَّ أنك مراوغ كبير!".

أجبته: "لا تقل ذلك يا وليد.. ولا تجعلني أندم لأنني أخبرتك".

ينفجر وليد في هذه اللحظة ضاحكاً ويقول: "أخبرني كيف عرفت أنك تحب سلمى!"..

قلت لوليد إنني أتمنى أنْ أرى سلمى كل يوم.. ولذلك فإني أذهب دائماً إلى دكان العم نعيم.. لكنني نادراً ما أراها هناك.. وأحياناً أصادفها تمشي مع أمها في ساحة العين..

قال وليد وقد ازداد اهتمامه بالموضوع: "قل لي هل كلمتها؟".

"وكيف أكلمها يا وليد؟ وأنا لم أتمكن من أن التقي بها إلا مرات قليلة جداً.. ولم أجرؤ على التكلم معها كلمة واحدة.. وأظنها لا تشعر بوجودي أصلاً".

"دعنا نحاول".

"كيف؟".

"لنفكر بأمر ما".

"مممم".

"ما رأيك أن ننتظرها أمام بيتها مقابل دكان العم نعيم، وعندما تخرج من البيت تلحق بها وتكلمها".

"هل تسخر مني يا وليد؟ لن أفعل ذلك أبداً"..

وبعد أيام رحلت سلمى مع أسرتها إلى قريتها.. وبقيت سمرتها الممزوجة بلون الشمس ذكرى في البال..

9 - باص المدرسة

من الأشياء الجميلة، ومن حسن الحظ - ربما - أنني كنتُ من الطلاب الذين يركبون الباص في بداية الرحلة ثم يدور في البلدة ليقل باقي الطلاب..

وفي طريق العودة أكون أيضاً من بين آخر الواصلين إلى بيوتهم غالباً بعد أن يوصل الآخرين، لأنَّ بيتي أبعد من بيوت كثير منهم عن المدرسة..

وكان العم أبو زكي يوصلني إلى البيت ثم يكمل طريقه ليوصل باقي التلاميذ.

وفي الحقيقة لم يكن الباص يسع كل تلاميذ المدرسة، لذلك كان العم أبو زكي يقوم بعدة رحلات توصيل يومياً قبل المدرسة وبعدها.. لكني كنت دائماً أركب أوَّل رحلة توصيل.. وأعتقد أنَّ ذلك يعود لتوصية شديدة من أبي مع إكرامية إضافية.

وأذكر أنَّ العم أبو زكي كان يحكي لنا في كل رحلة حكاية من حكاياته التي لا تنتهي، ومن أجمل الحكايات التي كان يرويها لنا ويكررها من حين لآخر قصة شرائه الباص.. ليبين لنا مدى "غلاوته" عنده كما يقول..

ويحكي العم أبو زكي قصته بفرح ويقول:

عندما كنت شاباً صغيراً في سن 16 تقريباً توفي والدي.. وكنت أكبر أخواتي وهن ثلاث بنات صغيرات، وأنا الصبيَّ الوحيد بينهن، وكانت أمي مثل كل نساء بلدتنا التي كانت قرية صغيرة في تلك الأيام لا تعرف القراءة والكتابة، ولا تعرف غير العمل في البيت، وكنت وقتها أساعد أبي في زراعة بستان صغير لنا، كما كان أبي يعمل فلاحاً في بعض الحقول المجاورة أو بعيداً في حقول القرى التي تحيط بقريتنا..

كان مرض أبي المفاجيء ثم موته بعد فترة قصيرة مصدر حزن للجميع.. وخاصة أننا أسرة كبيرة..

في البداية ساعدنا أهل القرية كثيراً..

لكن قريتنا لم تكن كما هي اليوم تعيش بشيء من الراحة والبحبوحة؛ نظراً لكثرة المغتربين الذين يرسلون الأموال إلى أسرهم ولا يبخلون عليهم أبداً..

فكرتُ أولاً بالسفر مثل كثير من شباب القرية؛ لكني استبعدت هذه الفكرة.. لم أكن أريد ترك أمي وأخواتي الصغيرات لوحدهن..

فقررت البحث عن عمل بأي مجال من أجل تأمين لقمة عيشنا.. فقد كان بستاننا صغيراً جداً ولا يكفي حتى ليؤمن لنا حاجتنا من الخبز ولنصف العام فقط..

اقترحت على أمي أن نبيع قطعة الأرض الصغيرة التي نملكها ونشتري بضاعة أتاجر بها..

لكنَّها خشيتُ أنْ أضيِّع هذا الإرث البسيط لقلة خبرتي، كما أنَّ بيتنا الصغير يقع داخل مساحة الأرض.. فلو خسرنا الأرض والبيت أين سنسكن بعد ذلك!..

لذا قررت العمل في الحقول كما قررت أمي العمل في خياطة الثياب التي كانت ماهرة فيها، لكنّ أجري كان بسيطاً، كما أنَّ عملي كان موسمياً لا يؤمن دخلاً ثابتاً يكفي أفراد الأسرة..

10 - شيخ القرية

ويتابع العم أبو زكي حكاية الباص قائلاً:
بعد فترة لم يعد المال يكفي أسرتنا الكبيرة، وخاصة بعد أن نفدَ منا ما تركه لنا أبي من بعض المال..

وكان في بلدتنا شيخ جليل يلجأ إليه الناس عند الحاجة ليستشيرونه، وكان رجلاً مجرباً محترماً محبوباً، يستمع لرأيه كل أبناء قريتنا، ويأخذون بمشورته..

رحب بي الشيخ أشد ترحيب، وقال لي إنَّه فخر بعد أن سمع بما أقوم به لمساعدة أسرتي.. وأوصاني بالحفاظ عليها قائلاً إنني منذ وفاة أبي أصبحت رجل البيت، وعليَّ مسؤوليات جمَّة..

ثم قال بعدَ أنْ عرضتُ عليه قضيتي، أخبرته بأنَّ المال الذي أحصله طوال الشهر لا يكفي أسبوعاً واحداً:

"أعتقد يا بني أنَّ ظروف قريتنا لن توفر لك أكثر من ذلك.. وأنت شاب صغير.. أعتقد أنَّ الأفضل لك أن تبحث عمل مناسب لك في العاصمة".

عندما سمعت لفظة العاصمة شعرت بالرعب وأنا لا أعرف أحداً فيها..

فتابع الشيخ دون أن ينتظر إجابة مني:

"سوف أرسلك إلى شخص عزيز عليّ يسكن في العاصمة اسمه السيد وديع.. السيد وديع الشلالي، لا تنس هذا الاسم ابداً... هو ابن قريتنا، لكنّه تركها منذ زمن واستقر في العاصمة، ويعمل في إحدى إدارات الدولة.. سأكتب لك عنوان عمله وعنوان بيته، وسأعطيك رسالة أرجو أنْ تسلمها إليه.. ولنَّ شاء الله سيكون لك عوناً وسنداً"..

في البداية لم تعجبني فكرة مغادرة قريتنا بسهولة..

فكرت بذلك طويلاً.. لكنِّي في النهاية وجدت أنَّه (الحل الممكن)..

اعتقدت أنَّ أمي سترفض الفكرة.. وبدأت أبحث عن طريقة لأقنعها بالموافقة على انتقالي للحياة في العاصمة بعيداً عنها، وأنا ما زلت في هذه السن الصغيرة..

فكرت كثيراً، ولم أجد مدخلاً مناسباً، كنت أتوقع أن ترفض أمي فراقي، فأنا اليوم "رجل البيت" كما يقولون..

وأخيراً قررت مواجهة أمي مهما كانت النتائج..

في المساء جلست معها لأفاتحها بالموضوع.. فوجئت بأنها تعرف السيد وديع.. وتعرف "أفضاله وأخلاقه".. ثم قالت لي بكل تشجيع:

"مادام شيخ بلدتنا الوقور هو الذي نصحك بذلك.. وأرسلك إلى السيد وديع.. فتوكَّل على الله.. وأنا سأتدبر الأمور مع أخواتك الصغيرات.. وعندما تبدأ بالعمل ترسل لنا ما تجمعه من مال.. وتأتي إلينا من حين لآخر لنراك ونسعد بوجودك معنا".

عندها أحسست بانشراح صدر أمي للفكرة، وتشجعت كثيراً للقيام بهذه الخطوة، متو كلاً على الله..

وفي الليلة نفسها جهَّزت لي أمي حقيبة صغيرة فيها بعض الثياب والطعام.. ثم أويت إلى فراشي باكراً.. لكنني لم أتمكن من النوم جيداً في تلك الليلة.

وفي صباح اليوم التالي وفي لحظة خروجي من البيت قبيل شروق الشمس.. صارت أمي تبكي، فطلبت منها أن تترضى علي.. ثم مضيت في طريقي وأنا أنظر إلى الوراء.. وكلما مشيت خطوة إلى الأمام كان بكاء أمي يشتد..

ولم أودع إخواتي الصغيرات.. تركتهن نائمات كيلا يبكين هن أيضاً مع بكاء أمي..

وعندما ابتعدت قليلاً جلست على صخرة قريبة من الطريق العام الذي يقطع قريتنا إلى نصفين.. وهو الطريق الوحيد الذي كان وما زال يربط بلدتنا بالقرى والبلدات المحيطة بنا..

جلست على الصخرة أنتظر (بوسطة) تمر في مثل هذا الوقت من كل صباحاً..
والبوسطة هي الوسيلة الوحيدة التي كانت تنقل الناس من القرى والبلدات على طريق قريتنا باتجاه العاصمة..
لم يكن كثير من الناس يملكون سيارات خاصة.. فالناس في تلك الضياع والقرى كانو فقراء.. وحاجتهم إلى السيارات نادرة.. ولو كان معهم المال لاشتروا به آلات زراعية..
كان يمر بقربي في هذه الأثناء المزارعون والفلاحون وهم في طريقهم إلى الحقول.. يسلمون علي ويترحمون على أبي..
ثم يتنهدون بصوت مسموع ويقولون: "لا حول ولا قوة إلا بالله.. حماك الله يا ولدي.. رحم الله والدك (الحاج زكي) لقد كان رجلاً طيباً.. الله يعينك على ما أنت فيه"..
ثم يمضون في طريقهم، وهم يضربون بأسى كفاً بكف، لأنَّهم ليس بإمكانهم مساعدتي، فقد كان معظم أبناء القرية يعيشون أيامهم يوماً بيوم.. ولم تكن لديهم إمكانات كبيرة.. وبالكاد مداخيلهم تكفي حاجاتهم الأساسية.
ويتابع العم أبو زكي حديثه قائلاً:
عندما وصلت البوسطة صعدت إليها وقلت للسائق على الفور: "يا عم.. أنا لا أملك أجرة الطريق.. لو سمحت لي بالركوب إلى العاصمة سوف أخدم الركاب وأساعدك، وسأنظف لك البوسطة بعد وصولنا إلى المحطة"..
نظر السائق إلى العم أبو زكي.. تأمَّله جيداً.. وقال: "اقترب مني يا ولدي.. ألست أنت ابن الحاج زكي.. رحم الله أباك كم تشبهه.. لقد رأيتك في العزاء بعد الدفن.. كان رجلاً طيباً.. ادخل يا ولدي.. اجلس في أي مكان يعجبك.. معاذ الله أن آخذ منك قرشاً واحداً أو أن تخدم الركاب.. أوأن تنظف البوسطة.. أنت ابن رجل طيب كريم عفيف؟! ادخل يا بني.. ادخل.. والله لو طلبت مني أن آخذك إلى أي مكان تريد لأنزلت جميع الركاب وأخذتك إلى حيث تريد.. اقترب مني لأقبلك.. فأنت ابن الأحبة".
ويتابع الحاج أبو زكي: فاجأني السائق كثيراً بكلامه فأدمعت عيناي حزناً على والدي.. ثم نظرت نحو الركاب وكانوا يراقبون المشهد فترحموا على والدي..
كنتُ أعرف أن لأبي محبة خاصة في قلوب أبناء القرى والبلدات المجاورة.. وكانت العادة أن ترسل تلك القرى والبلدات وفوداً للتعزية بموتى أبناء البلدات والقرى المجاورة، وكان حضور عدد من المعزين أمراً عادياً في قريتنا، لكن الذين حضروا في عزاء أبي كان عددهم أكبر من كل عزاء سابق.

11 - القلوب الطيبة

ويتابع العم أبو زكي حديثه بعد أن يمسح دموعاً تناثرت على خديه:
"الناس في تلك الأيام كانت قلوبهم طيبة.. فقد كان القرويون أسرة واحدة، يتعاونون، يتسامحون.. يتساعدون على قدر استطاعتهم وإمكاناتهم البسيطة للغاية".
وفي الحقيقة لم يكن العم أبو زكي يحكي لنا كامل القصة دفعة واحدة.. بل كان يرويها لنا على مراحل..
وغالباً ما كنا نصل إلى المدرسة أو إلى بيوتنا في طريق العودة ولا تنتهي الحكاية.. وفي اليوم التالي نطلب من العم أبو زكي أن يكمل قصته وأن يعيد بعض تفاصيلها التي لم نسمعها أو التي نحب أن نسمعها مرة جديدة.. وكذلك حتى يسمع الذين نزلوا على الطريق أو الذين لم يصعدوا الباص بعد ما فاتهم من الحكاية..
ويسترسل العم أبو زكي في حكايته قائلاً:

الناس في قريتنا والقرى والضياع المجاورة كانوا يعرفون أبي..
والناس في تلك الأيام يعرفون بعضهم بعضاً..
وكان أبي أحياناً يذهب إلى القرى المجاورة ليعمل في بعض الحقول.. وكان له أصدقاء وأحباء يزورهم ويزورونه..
طلب مني السائق أن أجلس في المقعد الخلفي الملاصق للكرسي الذي يجلس عليه.. وسألني إن كنت قد تناولت طعام الفطور.. وقبل أن أجيب على سؤاله قال لي: "لدي الكثير من الطعام.. عندما نتوقف قليلاً لنرتاح في المحطة التالية سوف نأكل معاً"..
وتوقعت أن يسألني بعد فترة عن سبب ذهابي إلى العاصمة.. لكنه لم يسألني هذا السؤال أبداً.. وكان يردد باستمرار: "الله يوفقك يا بني في مسعاك.. الله يوفقك".
ويتابع العم أبو زكي قصته فيقول:
عندما وصلت إلى العاصمة وكانت هذه أول مرة أذهب فيها إليها.. كان هناك زحام شديد لا أعهده في قريتي..
وكان الناس يتحركون بسرعة سيراً على الأقدام أو في السيارات والباصات والدراجات النارية، وهم يرتدون ثياباً تختلف كثيراً عن الثياب التي نرتديها في القرية..
ولحسن حظي أنني كنت أرتدي ثياباً أنيقة ومريحة جداً.. أعطاني إيَّاها الشيخ الوقور المحترم، بعد أن استلمت منه الرسالة.. فهو عنده حفيد في مثل سني تقريباً غير أنه أعرض مني قليلاً.. وأطول.. لذا كان القميص فضفاضاً وواسعاً، والبنطال طويلاً، لكنه مناسب عند الخصر إلى حد ما..
وبشكل عام فقد كانت الثياب ملائمة.. ولم أكن أحلم بأن أرتدي مثل هذه الثياب الجميلة من قبل.
عندما وصلنا إلى محطة العاصمة كان الوقت ضحى..
في بداية الأمر خفت كثيراً.. كيف يمكنني أن أتنقل ضمن هذا الحشد الكبير من الناس.. وإلى أين أذهب.. وماذ أفعل؟؟
وفي خضم هذه اللحظة من الإرباك والخوف والقشعريرة التي سرت في أنحاء جسدي.. التفت إلي سائق البوسطة والابتسامة تعلو محياه.. ثم قال بلهجة حانية: "أهلا بك في العاصمة يا ولدي"..
فهززت رأسي شاكراً.. وقبل ان أتلفظ بكلمة قال: "أظنّ أنك تريد الذهاب إلى السيد وديع الشلالي".
نبرة الصوت لم تكن نبرة سؤال.. فهذا ليس بسؤال.. هو متأكد من ذلك.. نظرت إليه باستغراب.. فتابع يقول دون أن ينتظر كلامي:
"هذا شيء طبيعي يا بني.. السيد وديع هو ابن قريتكم.. ولا يتأخر عن مساعدة أحد من أبنائها.. سوف أوصلك إلى مكان عمله بنفسي.. فلا تقلق.. سوف تبقى البوسطة في محطة الركاب بضع ساعات لنرتاح ويقضي كل منا عمله.. ثم نحمِّل الركاب قبل أن نعود أدراجنا بعيد العصر بقليل.. وفي هذا الوقت سوف أوصلك إلى مكان عمل السيد وديع فعمله قريب من هنا، ثم أذهب لبعض الأعمال وتوزيع الأمانات التي أحضرتها معي.. كما أني أحضر معي عادة بعض أكياس القمح والبرغل والزيت لبيعها على التجار.. ماذ نفعل يا بني؟.. هذه الحياة تتطلب منا جداً وعملاً متواصلاً"..
ثم قال: "عليك أن تستمع جيداً إلى ما سيقوله لك السيد وديع.. وإن لم توفق بعمل وأردت العودة معنا إلى القرية، واستبعد أن يسمح لك السيد وديع بذلك.. عليك أن تعود إلى المحطة قبيل العصر لتجد لك مقعداً في البوسطة.. فانتبه إلى الطريق والمحلات التي تراها حتى تحفظ طريق العودة.. ولو تهت لا تقلق فيمكنك أن تسأل.. الناس هنا طيبون ودودون.. فلا تخش السؤال"..
ثم أخرج محفظة نقوده وأعطاني ورقة نقدية من فئة العشر ليرات لم أكن قد رأيت مثلها من قبل.. فهذا المبلغ كان كبيراً جداً في طفولتنا، كما أننا كنا نادراً ما نتعامل بالنقود..

ثم تابع: "بما أنني متأكد أنك لن تعود اليوم.. وأنّ السيد وديع سيدبر لك عملاً مناسباً؛ اسمح لي بأن أعطيك هذه الورقة النقدية.. عربون محبة مني.. ولا تظن أنني أتصدق عليك.. أبداً.. فإنِّ لأبيك - رحمه الله - أفضالاً علينا لا ننكرها.. هذا دين بسيط له علينا.. وأرجو أن يكرمك الله بعمل طيب.. وسوف نراك كثيراً إن شاء الله في تنقلاتك بين العاصمة وقريتك"..

وكان العم أبو زكي عندما يصل عند هذه النقطة من الحكاية.. يجهش بالبكاء في كل مرة، فيشاركه كل من في باص المدرسة بالبكاء..

ثمَّ يكمل ويقول:

تلك الكلمات الطيبات نزلت عليَّ مثل ماء الورد البارد في يوم شديد الحرارة.. فشعرت باطمئنان شديد وبرضى.. وكانت بداية طيبة لرحلة طويلة..

وتابع العم أبو زكي حديثه قائلاً:

عندما وصلت إلى المبنى الذي يعمل فيه السيد وديع وسألت عنه.. كانت المفاجأة أنّه ليس أكثر من عامل بسيط مسؤول عن (كانتين) الإدارة الحكومية التي يعمل فيها..

أصبت بإحباط شديد، فقد كنت أظنُّ أنَّه مسؤول كبير..

عندما التقيته وعلم من أين أتيت رحب بي ترحيباً شديداً وأخبرني أنّه يعرف أبي جيداً.. ثمَّ سلمته رسالة شيخ القرية، وكانت دهشتي كبيرة عندما علمت أنّ الرسالة عبارة عن طلب لبعض الأدوية والأغراض.. وكان مع الرسالة بضع وريقات نقدية ثمن الدواء والأغراض المطلوبة..

فأحسست عندها أني خدعت.. وأني لم أكن سوى (ساعي بريد).

ففكرت بالعودة إلى المحطة وانتظار موعد عودة البوسطة إلى قريتنا.. لكن كيف لي أن أعود هكذا.. وماذا أقول لأمي؟.

هنا قال لي السيد وديع قاطعاً حبل تفكيري: "من المؤكد أنَّك جائع يا ولدي".

ثم تابع حديثه ضاحكا دون أن ينتظر إجابتي: "من حسن حظك أنك ستتناول اليوم طعاماً لذيذاً لم تذق مثله في حياتك من طبخ زوجتي المصون"..

قال ذلك بكثير من الفخر والاعتزاز..

فقلت في نفسي: لا بأس من أتناول قليلاً من الطعام، ثمَّ أعود بعد الغداء إلى المحطة.. يوجد وقت.. فالبوسطة لن تغادر قبل العصر.

وتابع السيد وديع كلامه:

"بعد ساعتين تقريباً ينتهي دوام العمل ونذهب إلى البيت.. الحاجة عائشة قالت لي إنها ستطبخ اليوم (كوسا محشي) أكيد أنك تحب الكوسا، قد لا تكون لذيذة كما تطبخها لك أمُّك.. لكنْ إن شاء الله ستعجبك"..

ويقول أبو زكي: كنت أريد أن أتهرب من هذه العزومة، لكن إصرار السيد وديع لم يترك لي مجالاً لأي خيار آخر..

ثم ذهبنا إلى منزل السيد وديع، وكان منزلاً بسيطاً للغاية.. مكوناً من غرفتين صغيرتين.. أثاثهما قديم لكنه متناسق ومرتب.. تعرفت على زوجته الحاجة عائشة، وكانت في سن قريبة من عمره الذي يقارب الستين..

وبعد أن أكلنا أطيب وجبة (كوسا محشي) أكلتها في حياتي.. شعرت بمدى لطف هذين الزوجين الطيبين.. وعرفت عندها سرَّ محبة الناس لهما.. وأنَّ الرجل الوقور كان محقاً بارسالي إليه..

لكني لم أقتنع حتى تلك اللحظة أن بقدرة السيد وديع على مساعدتي..

فهو كما يبدو رجل فقير جداً.. ويعمل عملاً بسيطاً..

لكنْ في كل الأحوال ليس عندي خيار آخر، وهو الوحيد الذي أعرفه في هذا المدينة الكبيرة..

فقلت: لأنتظر يوماً أو يومين.. ولعل في هذا خير كثير.

وعندما غربت الشمس ذهبنا أنا والسيد وديع لصلاة الغرب في مسجد قريب من بيته، وبقينا في المسجد حتى صلاة العشاء ثم عدنا إلى البيت.. وكنت شديد الإرهاق والتعب، فقال لي السيد وديع: "نحن ننام باكراً لأنَّ عملي يبدأ بعد الفجر مباشرة... وأنت ستذهب معي غداً.. سننام الآن.. وفي الصباح رباح".

وجدت الحاجة عائشة وضعت لي على أرض غرفة الاستقبال التي هي أيضاً غرفة جلوس وغرفة طعام ما يشبه المرتبة..

وما أن وضعت رأسي على الوسادة حتى سقطت في نوم عميق.

12 - العمل في الكانتين

ويتابع العم أبو زكي قصته قائلاً:

في اليوم التالي أيقظني السيد وديع باكراً، وقال لي: "هيا انهض، فقد أذن الفجر"..

ثم توجهنا للصلاة في المسجد، ومن المسجد ذهبنا مباشرة إلى العمل في الكانتين..

وكان علينا أن ننظف المكان جيداً.. ثم نبدأ بتحضير بعض السندويتشات قبل بدء وصول الموظفين..

أحسست بالوقت يمر سريعاً..

وبدأ الموظفون يتوافدون وأصحاب المعاملات.. وانهالت علينا الطلبات بالجملة.. ما بين قهوة وشاي وسندويتشات من مختلف الأنواع، بالجبنة واللحم واللبنة والعصائر الطازجة المنوعة.. ولم أشعر بالوقت حتى انتهى الدوام..

وكانت مهمتي الأساسية أنْ أجيب على الهاتف وأسجل الطلبات..

وكان معنا صبيان يقومان بتوصيل الطعام، فيما كان السيد وديع يقوم بتحضير الطلبات مع مساعد له.

ثم طلب مني السيد وديع بلطف شديد بعد أن ازداد عدد الطلبات أن أقوم أيضاً بتوصيل عدد منها على المكاتب..

ثم عرفت أنهم ينادون السيد وديع بأبي وديع، رغم أنه لم يكن عنده أبناء..

وعندما كان يمر أحدهم ليأخذ الطلب بنفسه أو ليتناول طلبه داخل الكانتين وكان فيه بضعة كراس وطاولات.. كانوا يسألونه: "من هذا الفتى يا أبو وديع؟"، فيجيب: "ابن أخي.. إنه ابن اخي، ألا ترون أنَّه يشبهني"..

وكنت أفرح كثيراً بذلك.. ويسعدني ما يقول.. فقد كان يتكلم بطريقة مرحة وفخورة..

مرّ النهار الأول في العمل بشكل سريع جداً..

وبعد انتهاء الدوام وقبل أن نعود على بيت السيد وديع .. ناداني قائلا: "تعال نتحاسب"..

ثم قال: "لم نتفق بعد على يوميتك.. لكني سأعطيك عشر ليرات كاملة عن هذا اليوم، لأنك أظهرت أنك مجد في عملك.. ولم تضيِّع وقتك.. وقد كان العمل وفيراً اليوم.. وعن كل يوم سوف أعطيك خمس ليرات.. فما رأيك؟ ولو زاد العمل سأعطيك أكثر؟ فهل أنت موافق؟".

فرحت كثيراً.. هذا مبلغ كبير جداً.. يكفي أمي وأخواتي لأسبوع كامل.. وسوف أخبىء الباقي لينفعنا في شيء ما فيما بعد..

ويتابع أبو زكي قائلا:

وبعد بضعة شهور أصبح عندي مبلغ لا بأس به من المال.. ولم أعد أسكن في بيت السيد وديع.. فقد استأجرت غرفة في شارع قريب من العمل.. فصرت أحضر قبل السيد وديع إلى الكانتين وأقوم بكثير من العمل قبل أن يأتي.. مما كان يفرحه ويزيد من أجرتي..

ولم تكن أجرتي اليومية هي مصدر رزقي الوحيد.. بل كنتُ أحصل على كثير من "البقشيش". كما أن بعض أصحاب المعاملات صاروا يطلبون مني أن أنجز لهم معاملاتهم مقابل أجر مناسب.. وقد تعرفت على كل المكاتب واختصاصاتها، وصار جميع الموظفين يعرفونني..
كنت أطلب منهم بعض الخدمات فينجزونها لي على الفور.. وكان أصحاب المعاملات يكرمونني كثيراً.. وصرت أرسل لأمي مبالغ كبيرة.. فكانت تدعو لي هي وأخواتي..

13 - صندوق أمي

وبعد نحو سنة.. أخذت أوَّل إجازة طويلة لي لمدة ثلاثة أسابيع، وذهبت إلى القرية.. وكنت قد ذهبت إليها خلال الشهور الماضية أربع أو خمس مرات فقط، كل شهرين أو ثلاثة تقريباً.. وفي كل مرة أقضي يوماً أو يومين، في عطلة نهاية الأسبوع ثم أعود..
في هذه الإجازة الطويلة أخبرتني أمي أنّها ادخرت بعضاً من المال الذي كنت أرسله وأصبح عندها مبلغ كبير.. وأرتني صندوقاً خشبياً صغيراً مليئاً بالمال..
قالت بفرح:
"كنا نشتري الضروري مما نحتاج إليه.. وما يبقى من مال كنت أدخره لك، فهو من تعب جبينك يا بني"..
فرفضت أخذ المال وقلت لأمي إنَّ هذا المال حق لها ولإخواتي..
قالت: "هذا المال لنا جميعاً.. لكنه لك أولاً.. بهذا المبلغ يمكنك أن تبدأ مشروعاً صغيراً.. وتنجح بإذن الله"..
فكرتُ ملياً..
قلت في نفسي: لو وضعت هذا المال مع المال الذي معي ربما تمكنت من القيام بمشروع ما وتحقيق ما تحلم به أمي..
وجلست أفكر لفترة طويلة.. حتى لمعت في رأسي فكرة رائعة..
البوسطة التي تنقل الناس من القرى والبلدات إلى العاصمة لم تعد تستطيع استيعاب كل الناس.. والذين يذهبون إلى العاصمة هم في ازدياد مستمر.. لو اشتريت بوسطة صغيرة.. سيفرح الناس بذلك.. ولن أضر صاحب البوسطة، ففي المرات الأخيرة التي جئت بها إلى قريتي في البوسطة رأيت كثيراً من الناس يلوحون له ليتوقف، لكنَّه كان يعتذر إليهم بلطف لأنّه لا يوجد مقاعد خالية.. فيضطرون للذهاب بسيارات الأجرة وتكلفتها أكثر بكثير من تكلفة البوسطة..
عرضت الفكرة على أمي..
قالت: لكن البوسطة ثمنها غالٍ..
قلت: تتدبر إن شاء الله..
وبعد انتهاء الإجازة وفي طريق العودة أخبرت سائق البوسطة عن هذه الفكرة.. فقال: "والله يابني تفعل خيراً.. الرزق رزق الله.. وكما ترى فإن الركاب كثيرون.. وأنت أصبحت تعرف الطريق جيداً.. لكن عليك أن تتعلم القيادة.. وتتدرب عليها.. ثم تحاول أن تحصل على رخصة.. لكني أعتقد أن سنك ما زالت صغيرة، ربما تحصل على رخصة بعد عام أو عامين.. وفي هذا الوقت سوف أعلمك القيادة بنفسي.. وعندما أجدك قادراً على القيادة سأسمح لك بقيادة البوسطة في الطرق السهلة"..
قال أبو زكي:
فرحت بذلك أشد الفرح.. وعندما وصلت العاصمة أخبرت السيد وديع بذلك..
بدت على وجهه أمارات الحزن مختلطة بعلامات الفرح.. وقال:

"أنت الآن مثل ولدي.. لا يمكنني الاستغناء عنك بسهولة.. لكنّها إرادة الله.. والله يوفقك.. أنا لا أريد أن تتركني، لكني سأساعدك قدر ما أستطيع.. سوف أسهل لك عملية الحصول على رخصة قيادة.. كما أنني أعرف شخصاً يعمل في صالة لبيع البوسطات والباصات.. سأتصل به ثم نذهب اليه"..

ومضت الأيام وأنا أنتظر تحقيق وعد السيد وديع لي، حتى ظننت أنه نسي الموضوع.. لكني لم أكن أريد أن ألح عليه.. حتى فاجأني ذات يوم بعد دوام العمل بأننا سنذهب الآن الى الصالة حيث سنجد ما نريد..

وعندما وصلنا إلى هناك استقبلنا شخص كان يعرف السيد وديع جيداً ويعمل في الصالة..

أخذنا على الفور إلى مكان جانبي مفتوح خارج الصالة الداخلية المغلقة.. إلى حيث توجد البوسطات المستعملة..

كنت أعتقد أننا سنشتري بوسطة جديدة.. فلم يعجبني منظر البوسطات والباصات المستعملة..

قال البائع: "عزيزي أبو وديع.. لقد تأخرت عليك بالرد حتى وصلت إلينا اليوم هذه البوسطة".. وأشار إليها بيده، وهو فخور بهذا العرض، كأنه يريد أن يسدد جميلاً قديماً للسيد وديع..

ثم أردف يقول: "هذه البوسطة رائعة، واستعمالها خفيف جداً.. عمرها ثلاث سنوات فقط لكن استعمالها لا يتجاوز شهراً واحداً"..

ثم قال ضاحكاً: "يبدو أن صاحبها السابق لم يستعملها لسبب ما، وقرر اليوم أن يبيعها.. أضمنها لكما بسعر أقل من سعر السوق.. وسأسجل بيعها باسمي لأضمن لكما خصماً ممتازاً.. انظرا اليها كم تبدو رائعة.. كأنها جديدة لم تستعمل"..

كانت البوسطة متوسطة الحجم.. رائعة الشكل فعلاً..

فرحت كثيراً.. وأحسست أنها صفقة رابحة..

لكن السؤال الذي ظل يراودني: "هل سأتمكن من دفع ثمنها؟ ويا ترى كم هو ثمنها؟".

وعندما عرفت الثمن كاد يغمى علي..

كل المبلغ الذي جمعته أنا وأمي لا يكفي ربع ثمنها..

ولما لاحظ البائع ارتباكي.. قال: "ما بك أيها الشاب؟ لا تخشَ شيئاً.. أخبرني كم هو المبلغ الذي تستطيع أن تدفعه؟".

فقلت له متلعثماً: "معي تقريباً ربع المبلغ المطلوب"..

قال: "إذن المسألة محلولة.. هل لديك كفيل.. أو شيء يمكن أن ترهنه"..

فقال السيد وديع: "أنا أكفله.. أنا أكفله"..

شكرت السيد وديع معتذراً.. ثم قلت للرجل: "عندي قطعة أرض صغيرة وبيت مبني عليها".

فقال البائع: "إذن انتهى الأمر.. تدفع ربع المبلغ.. وترهن الأرض والبيت ثم تسدد المبلغ الباقي على دفعات لمدة خمس سنوات.. وبذلك لن ترهق نفسك ويمكنك أن تسدد المبلغ بسهولة من المال الذي تحصله من العمل على البوسطة.. لكن عليك أن تحذر.. لو تعذرت بالسداد سوف يتم الحجز على الأرض والبيت"..

ويضيف أبو زكي: وهكذا اشتريت البوسطة.. وعملت عليها ما بين خمس وست سنوات ما بين القرية والعاصمة.. وسددت كل المبلغ في أقل من ثلاث سنوات... وكانت قريتنا في هذا الوقت تتسع، وازداد عدد ساكنيها وأصبحت بلدة كبيرة.. افتتحت مدرسة جديدة كانت بعيدة عن وسط البلدة القديمة، وصار هناك حاجة لنقل التلاميذ إليها من بيتوهم وبالعكس.. عندها طلب مني مختار البلدة أن أحول البوسطة إلى باص ينقل التلاميذ.. وعرض علي أن يوظفني في المدرسة براتب مناسب..

فرأيت أنّ الوظيفة أفضل لي، خاصة أنني كنت أريد الزواج والاستقرار ومن هنا بدأت قصة باص المدرسة..

14 - بشير والبوسطة

كانت هذه الحكاية كثيراً ما تشغل تفكيري, وكانت تجربة العم أبو زكي هذه يعرفها كل أهل بلدتنا والبلدات المجاورة.. لكثرة ما يرويها.. وقد سمعناها منه أكثر من مرة.. وكنا في كل مرة نفرح بسماع قصته هذه وغيرها من القصص الكثيرة التي كان يحلو له أن يرويها خلال قيادته للباص.. وخاصة عندما نكون في رحلة مدرسية خارج البلدة..

وأحياناً كان يقوم في العطلة الاسبوعية برحلات جماعية خارجية لمن يرغب لمن أبناء البلدة..

وكنت أحكي لأبي بعض قصص العم أبو زكي.. فاكتشف أنه يعرف قصصه تلك.. وأخبرني أبي يوماً أنّ العم أبو زكي حكى لأخي بشير أيضاً مثل هذه القصص عندما كان أخي صغيراً ويذهب مثلي إلى المدرسة الابتدائية..

وأخي بشير لم يعد يذهب في الباص..

فهو يقول لأبي وأمي إنه أصبح كبيراً بما يكفي ليذهب لوحده إلى المدرسة سيراً على قدميه..

وفي الحقيقة؛ لم تكن مدرسة بشير بعيدة عن بيتنا.. وكان السير إليها أفضل برأيي من انتظار الباص الذي يتأخر كثيراً.. وبذلك يستطيع أخي أن ينظم وقته ويتحكم بذهابه دون التزام مع الباص المبكر بالحضور والمتأخر بالوصول إلى المدرسة أو بالعودة إلى البيت..

ومن حسن حظ أخي أنَّه كان لنا جار اسمه أنور في مثل سنِّ أخي وفي فصله بالمدرسة، وكانا يذهبان معاً في الصباح بعد ذهابي إلى المدرسة في الباص، ويعودان أيضاً معاً قبل عودتي إلى البيت من المدرسة بالباص أيضاً، رغم أنهما في المرحلة الثانوية التي تتطلب منهما وقتاً أطول من الوقت الذي أقضيه في مدرستي الابتدائية، لكن رحلة الطريق والتوصيلات التي يقوم بها الباص تجعلني أبكر بالخروج، كما أني أتأخر عنهما بالعودة أحياناً..

وفي يوم سألني أخي سؤالاً لم أكن أتوقعه:

"بالتأكيد أنت تعرف قصة أبو زكي والبوسطة؟".

"نعم.. فكل أبناء القرية يعرفونها".

فقال أخي بجدية: "منذ الصغر وأنا لا أصدق هذه الحكاية من أساسها.. وأعتقد أنِّ أبو زكي يريد أن يصنع لنفسه بطولات زائفة.. يخترع القصص التي يريدها.. ثم يريدنا أن نصدقها.. وكيف يمكن أن أصدق مثل هذه القصة السخيفة.. كيف يستطيع شاب فقير مثله أن يجمع ربع ثمن البوسطة كما يقول في سنة واحدة؟ وهو ما زال مجرد صبي صغير في كانتين يوزع الشاي والقهوة على الموظفين.. أنا لا أصدق هذه القصة من أساسها.. فكيف تصدقها أنت؟".

"لكنه يرويها بصدق.. ولماذا يكذب علينا؟".

"يريد أن يظهر نفسه بطلاً من الأبطال.. وأنا أظنه جمع ثمن البوسطة بطريقة غير قانونية.. وربما سرق المال من السيد وديع المسكين قبل أن يموت.. فقد علمت أنّ السيد وديع ماتت زوجته بعد عودة العم أبو زكي إلى البلدة مباشرة.. ولم يتحمل السيد وديع فراق زوجته فمات بعدها بأيام قليلة.. ولم يجدوا في بيته سوى قروش معدودة.. فأين ذهب ماله وتعبه طوال عمره؟! لا شك أن أبو زكي استولى على مدخرات السيد وديع المسكين.. فماتت زوجته قهراً.. ثم مات من بعدها حزناً عليها".

"لكن هذه القصة التي ترويها ليست حقيقية.. ولن يصدقها أحد"..

"أنا أحتفظ برأيي لنفسي.. ولا أتحدث به إلا لبعض الأصدقاء"..

استغربت كثيراً من رأي أخي.. فهذه أول مرة يقول لي ذلك..

شعر بشير بحيرتي واستغرابي فقال:

"لم أكن أريد أن أخبرك برأيي هذا لكني رأيتك معجباً كثيراً بأبو زكي وبطولاته المزيفة.. فأحببت أن أخبرك بذلك لكي لا تستمر بهذا الإعجاب".

في الحقيقة لقد صدمت صدمة قوية من رأي أخي بشير.. وأصبحت أشك في قصص أبي زكي .. فأخي بشير شاب معروف ببلدتنا بأنه صالح ويفكر كثيراً.. وبعض كبار السن يستشيرونه لأنه يقرأ دائماً ويحرص على التعلم..

كما أنه يقرأ أحياناً القضايا التي يرافع بها أبي في المحاكم..

وفي بعض الأحيان كنت أراه يناقش مع أبي بعض المسائل ثم يقترح عليه اقتراحات حول قضايا معينة فيوافقه أبي في رأيه..

ويقول له: "ستصبح محامياً مشهوراً لو سمعت مني ودخلت كلية الحقوق"..

لكنَّ أخي لم يكن يريد ذلك..

ومنذ ذلك اليوم صرت شكاكاً، ولا أصدق كل ما يرويه لنا العم أبو زكي من حكايات.. لكني لم أقتنع لحظة واحدة بأنّه سرق المال من السيد وديع..

فالعم أبو زكي رجل طيب يخاف الله.. والناس في بلدتنا تحترمه.. ولم أكن لأصدق أن أحداً يمكن أن يسيء مثل هذه الإساءة إلى من أحسن إليه في يوم من الأيام..

ومع ذلك؛ أصبحت شكاكاً..

وصارت الأيام تمضي دون أن أعبأ كثيراً بقصص العم أبي زكي وبحكاياته..

وأشغل نفسي في الباص بمراجعة دروسي أو بالتمتع بمنظر الطبيعة..

15 - العجلة الدوارة

ومضت الأيام, وأصبح النجاح بتفوق يأخذ كثيراً من اهتمامي..

ونجحت إلى المرحلة المتوسطة.. وبدأت أحلم بالانتقال إلى الثانوية..

كنت أريد أن أكبر بسرعة لأنتقل إلى الثانوية، حيث تكون لي حرية أكبر، فأشعر أني أصبحت شاباً أستطيع أن أخرج وأتنزه لوحدي دون أن يراقبني أحد.. وخاصة إلى سوق البلدة الكبير حيث يجتمع معظم أبناء البلدة يبيعون ويشترون..

ولطالما رجوت أمي أن تسمح لي بالذهاب لوحدي إلى سوق البلدة حيث يمكنني أن ألتقي ببعض الأصدقاء لنلهو ونمرح بالتنقل بين المحال والبسطات المنوعة، ثم نجلس على مقاعد حديقة السوق الخشبية حيث يجلس كثير من الناس معظمهم من المسنين من الجدود والجدات.

كما يمكنني أن أذهب إلى ساحة كبيرة قريبة من السوق يجتمع فيها الشباب عادة، ثم أرتاد حديقة صغيرة للألعاب، كانت فيها (العجلة الدوارة) لعبة جميلة جداً وهي عبارة عن مجموعة من المقصورات، في كل مقصورة مقعدين متقابلين يجلس فيها شخصان اثنان فقط، وجهاً لوجه واحد..

ثم ترتفع المقصورة وتدور مثل عجلة كبيرة دوارة.. فترتفع وترتفع حتى تصل إلى أعلى نقطة قريبة من السماء..

وبعد أن كبرت قليلاً وانتقلت إلى المرحلة المتوسطة بدأت أخرج لوحدي من حين على آخر برفقة صديقي المقرب وليد..

وقد رجوت أمي في أحد الأيام أن تسمح لي بركوب العجلة الدوارة لوحدي... لكنها كانت متمسكة برفض ذلك..

قلت لها إنَّ صديقي وليد تسمح له أمُّه بذلك منذ إن كان في الابتدائية.. والآن نحن كبرنا..

وبعد نقاش طويل.. سمحت لي بشرط أن يكون وليد معي في المقصورة نفسها.. فوافقت على مضض.. قبل أن تغير أمي رأيها.

فقد كنت أشعر بزهو بالغ عندما تصل المقصورة إلى أعلى العجلة، فلم تكن هنالك نقطة في البلدة أعلى من هذه النقطة التي نصعد إليها بواسطة هذه العجلة الضخمة..

فنحن في منطقة سهلية منسبطة وممتدة.. ولم تكن هنالك عمارات لنعرف بواسطتها كيف يكون المشهد من الأعلى..

وعندما كنت أصل إلى قمة العجلة أشعر بفرح غامر، أنظر إلى تحت ثم إلى فوق وأنا ما بين السماء والأرض، فتبدو البلدة مثل لوحة فنان شاعر، البيوت منتظمة في شكل متناسق رائع، يمتزج القرميد الأحمر بصفاء السماء الزرقاء، ويمتد الأفق حتى يعانق الأرض في مكان بعيد..

لكنَّ هذا المنظر البديع لم يكن متاحاً لي في كل أيام العام، كما أنَّ الصعود إلى هذه "القمة" لم يكن متوافراً في بعض الفترات، وخاصة عندما تتساقط الثلوج بكثافة، وتشتد الريح، وينتشر الغمام الأبيض الساحر، فتصبح الرؤية من قمة العجلة غير ممكنة...

وقد كنا نترقب هدوء الريح، وتفرُّق الغمام، لنذهب برفقة الأسرة إلى هذه "العجلة الدوارة" فنجد العدد الوفير من الصغار والكبار قد سبقونا إليها لينعموا بهذا المنظر الجميل؛ بساط أبيض يشتعل بريقاً، ثم يزداد ألقاً عند سطوع الشمس باسطة أشعتها الذهبية على الذهب الأبيض، فيعكس الثلج نور الشمس، ليعود الشعاع هائماً في الآفاق، حتى تلمع زرقة السماء بضياء ساحر..

واليوم كان من أجمل أيام العمر.. سأركب العجلة الدوارة مع صديقي المقرب وليد.. لترتفع بنا إلى أعلى نقطة في البلدة..

وأخيراً ركبت العجلة الدوارة لأول مرة مع طفل صغير مثلي.. وكان يوماً من أيام العمر..

وفي قمة العجلة الدوارة.. وفي قمة الدهشة.. عندما وقفت بنا العجلة لنتأمل منظر الطبيعة.. نظرت إلى وليد.. وقلت له: "أخشى أن يكون كل هذا المشهد خادعاً"..

ضحك وليد وقال: "كيف كذلك يا أيها الذكي؟".

أخبرت وليد عن رأي أخي بشير بحكاية العم أبو زكي والبوسطة..

ارتفعت ضحكات وليد.. فأحسست أن المقصورة ترتج من ضحكه وأننا سنقع منها..

ثم قال: "أنا لا أشك بهذه القصة أبداً".

سألته: "ولماذا".

فقال: "ببساطة شديدة.. لقد سمعت ما يقال عن العم أبو زكي من قبل، وعندما قلت لأبي ما سمعته عن هذه الحكاية أخبرني أنَّه كان شاهداً على عملية رهن الأرض.. وهناك جزء خفي من الحكاية أخبرني به أبي شرط ألا أحدث به أحداً من الناس، وأن أحافظ على سر العم أبو زكي، وقد أخبرني بذلك أبي خوفاً من أن يموت ويدفن السر معه، وأوصاني بألا أخبر أحداً بسره وهو على قيد الحياة.. ولوالدي وحده الحق بقول السر أو إخفائه".

فقلت على الفور: "أخبرني به.. وهل بيننا أسرار".

أجاب: "اعذرني يا صديقي.. فهذا سر وأنا أحافظ عليه منذ زمن بعيد، لكني متأكد تماماً من نزاهة العم أبو زكي وصدقه وأن ما قاله أخوك كلام وتحليل غير صحيح وغير منطقي".

قلت: "لكنَّ أخي يقرأ كثيراً في القانون ويريد أن يصبح قاضياً".

قال وليد: "أخشى أن أخاك فشل في حكمه على الرجل.. وعليه أن يبحث عن مهنة أخرى غير القضاء.. فكيف يحكم على الناس بهذه الطريقة.. وكيف أصدر حكماً مثل هذا على العم أبو زكي.. وهو برئ تماماً".

قلت له: "ولماذا تصرُّ أنت على براءته.. وأين دليلك؟".

في هذه اللحظة تحركت العجلة.. وبدأت تنزل بنا.. فأدركت أني أضعت فرصة مشاهدة هذا المنظر الرائع.. وشغلني الحديث عن العم أبو زكي..

وعندما خرجنا من المقصورة قلت لوليد: "لن أدعك تفلت من يدي.. وعليك أن تخبرني

بالحقيقة وإلا ذهبت بنفسي إلى أبيك لأسأله عن سر الحكاية".

16 – سرُّ الحكاية

رفض وليد بشدة أن نذهب إلى أبيه.. وقال: "لم يكن عليّ أن أخبرك بوجود هذا السر.. لو علم أبي بذلك فسوف يحزن كثيراً.. وقد يعاقبني"..

قلت له: "إن لم تذهب معي الآن فسوف أذهب لوحدي.. وليكن ما يكون"..

حاول وليد أن يثنيني عن ذلك لكنّه استسلم أمام إلحاحي وإصراري، ووافق على الذهاب معي إلى منزله للقاء أبيه..

استقبلنا أبو وليد بترحاب كبير.. فهو يعرف العلاقة الخاصة التي تربطني بوليد..

وكان أبو وليد مزارعاً طيباً.. يعرفه أهل البلدة بأنَّه كاتم للسر، ولا يتكلم عن أحد من الناس.. وكان يعرف أبي جيداً ويزورنا في البيت أحياناً.

ودون مقدمات أخبرته بما قال لي أخي عن العم أبو زكي..

تنهد أبو وليد تنهيدة من أعماقه.. ثم قال: "لقد سمعت هذا الكلام من قبل، وفضلت إلا أتكلم.. وقد وصل هذا الكلام إلى العم أبو زكي نفسه.. فجرحه من الأعماق.. لكنَّه يعرف جيداً أنه لم يفعل ما يقال عنه.. ولا يريد الدفاع عن نفسه في قصة مختلقة ليس لها وجود.. لكن يبدو أنه حان وقت الكلام.. وهذا الأمر لا يعرفه إلا أربعة أشخاص فقط، أثنان توفاهما الله وهما أم الحاج أبو زكي... والسيد وديع.. وواحد على قيد الحياة وهو أنا، أما الرابع وهو البائع فلا أعرف إن كان حياً أم ميتاً.. وكنت أكتم السر احتراماً لتمنيات أم الحاج زكي، التي لم تكن تريد أن تجرح قلب ابنها..".

فقلت بلهفة: "أخبرني يا عمي.. أخبرني".

فقال بحزم: "سأخبرك.. وعليك أن تخبر أخاك بشير أن لا يظلم بحكمه أحداً من الناس.. وأن يتحرى الحقيقة قبل أن يصدر الأحكام".

ثم تابع يقول: "أرجو الله أن تسامحني أم الحاج أبو زكي لأنني مضطر لإفشاء سرها.. فقد كانت الحاجة رحمها الله تعمل خفية عن ابنها في الزراعة والفلاحة.. وكانت ترتدي ثياب الرجال وتخرج للعمل في الحقول دون أن يعرفها أحد، وكانوا يظنون أنها رجل لقوتها وشدتها.. وصبرها"..

تفاجات كثيراً عندما قال أبو وليد ما قاله..

الأمر غريب حقاً..

إمرأة متوسطة العمر تخرج لتفلح الأرض وتزرع مثل الرجال، وتعود للاهتمام ببناتها الصغيرات.. بعد أن توفي عنها زوجها.. في وقت لم يكن مقبولاً أن تخرج المرأة للقيام بذلك.. وليس ذلك فقط.. بل ترتدي ثوب الرجال ليظنها الناس رجلاً..

تابع أبو وليد كلامه موضحاً: "كان لدى أم الحاج زكي صندوق آخر غير الصندوق الذي كانت تجمع فيه المال الذي يرسله ابنها إليها من حين إلى آخر والذي يتحدث عنه الحاج ابو زكي في قصته.. وكانت تضع في هذا الصندوق المال الذي تجمعه من عملها بالفلاحة، وتخفيه عن ابنها.. وعندما جاء البائع ليرهن البيت والأرض وجد أن قيمة الرهن لا تساوي مبلغاً بسيطاً، لأنَّ الأرض كانت صغيرة المساحة، وكانت الاراضي البعيدة عن المدن رخيصة الثمن في ذلك الوقت.. عندها أخرجت أم الحاج أبو زكي صندوقها خفية عن ابنها.. بحضوري وحضور السيد وديع، بعد أن خرج ابنها من البيت لحاجة ما طلبت منه أن يحضرها من الدكان.. ثم أعطت الصندوق للبائع وكان فيه مبلغ كبير من المال، مشترطة علينا أن لا نخبر ابنها بهذا الأمر وأن يبقى سراً بيننا..".

وفي هذه اللحظة بدا التأثر شديداً على العم أبو وليد..

ثم قال بفخر: "آن الأوان اليوم لنعلن عن هذا السر.. ولتسامحني الحاجة أم الحاج أبو زكي وهي

في قبرها.. لقد حان للحاج أبو زكي وأخواته أن يفخروا أكثر بأمهم.. وأن نفخر نحن أيضاً معهم أكثر وأكثر.. فقد كانت امرأة صابرة مجاهدة.. ربت بناتها على الخير.. لقد كانت ظروف زمانها لا تسمح للمرأة بأن تعمل بالفلاحة كما هي فعلت.. أمّا اليوم فهي فخر لنا ولهذه الحكاية التي يرويها الحاج أبو زكي".

استأذنت وخرجت مسرعاً..

كان همي الأوَّل أن أصل بسرع قصوى إلى البيت لأخبر أخي بشير بهذا السر..

لم يكن حكمه صائباً.. فالأمور لا يحكم عليها من شكلها الخارجي.. فلكل حكاية سرٌّ من الأسرار يكمن وراءها.. وسر حكاية البوسطة أجمل من الحكاية نفسها..

(النهاية)

2011 -4 -18